محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

قبل أن أتحدث عن هذا الرجل الذي يجب أن يتحدث عنه مدونو تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث — قبل هذا أحب أن أقول في هذا الباب شيئاً عاماً . ذلك بأننا اعتدنا أن نُغفل الكلامَ في سيرة من عاصرناهم ، ورأيناهم ولابسناهم ، إلا أن يكون القولُ من جنس هذه المراثي التي تُضفى فيها حللُ الثناء ، ويُكال فيها المديحُ في العادة ، بغير حساب . ولقد يكون هذا الثناء حقاً أو قريباً من الحق ، بحيث لا يؤذي التاريخ في كثير ولا قليل ، ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبلة شيئاً من حقيقة الرجل ، لأن الكاتبين في هذه الحالة لا يُعنَون ببسط حياة الرجل ، وظواهر خلاله ، والعوامل البارزة في تكوينه ، ومطبوع عاداته ، ولو ما يتصل منها بالأسباب العامة . وذلك من أيسر الأمور لأنهم عرفوه بالمشاهدة ، واستيقنوه باللابسة وطول الاختبار . وهذا ولا شك مما يهيئ للقادمين دراسته وتحليله دراسة إن لم تنته إلى أصدق النتائج ، فهي أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال

وليس يذهب عن القارئ أن إهمال المعاصرين ، على هذا النحو ، لابدّ مفضٍ إلى إحدى حالين : إما إلى إدراج كثيرين من رجال الآداب والفنون في مطاوي النسيان ، أو التحيف من أقدارهم بقدر كثير أو قليل ؛ وإما إلى تجليتهم ، إذا تراخى الزمان في غير صورهم ، ومحلهم صفاتٍ وخلالاً لم تكن لهم ، بحكم العنعنة في رواية الأخبار ، والاتكاء في تحليل نفس الرجل على ما صدر عنه من الآثار . وكثيراً ما يضل الباحث المستنتج في هذا أبعدَ الضلال . هذا إلى ما في معاناة مثل تلك البحوث من إضاعة للوقت ، ونفقة من الجهد ، وتجشم للعناء

وأغلب الظن في هذا الأغفال من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفنون والآداب يرجع إلى أن الرجلَ العظيمَ قلّ أن يراه معاصروه بالعين التي يراه بها الخالفون ، فهو في الغالب إذا استحق منهم ترديد ذكره والهتاف باسمه ، وتدوين سيرته ، فقلّ أن يُعنى أحدٌ بتقصي عاداته ، والتسلل إلى مداخله ، وعرض ما يلابس الأسبابَ العامة من سائر أموره ، أو لأنهم لا يُعنَون بهذا لأنه حاضر لمعاصريه قريب منهم . فهو في حكم المبذول الذي ينال منه من شاء أن ينال . ولا شك أن في هذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيغيب على الزمن ، وأن المبذول سينقبض ، وأن ما في متناول اليد اليومَ ستتقطع من دونه غداً علائق الآمال !

ولقد يسكت النقدةُ عن تقصي ذلك عمداً ، والتلبث بتحليل الرجل ، وردّ العوامل في تكوينه إلى مناجها حتى ينطوي الزمن عليه وعلى أهله ، وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه ، حتى يتهيأ الجوّ للبحث والتحقيق ، لا رغبة ولا رهبة فيه ، فيكون البحث أنور وأصفى ، وتخرج النتائج أدقّ وأوفى

وهذا مذهب في الرأي له أثره وله خطره ، بالرغم من أنه يفوّت على المؤرخ المدقق من عناصر الحكم ما قد يسيء في بعض الأحيان إلى حكمه ، فإذا هو طلبها تصحيحاً لبحثه ، فلن ينالها إذا نالها صادقة إلا بعد أن يتجشم في سبيلها عرَق القربة كما يقولون !

على أنني في هذا لا أذهب إلى القول بنشر المعايب ، واستظهار المكاره ، حتى لا يثير المدوّنُ ثائرةَ الأهل والصحاب والأنصار ، إنما أريد أن يجلو المعاصرُ ، من غير ذلك ، كلّ ما له خطرٌ في تكوين الرجل ، فإذا كانت هناك مغامز لا ينبغي إغفالها في تجليته وتحليله ، فليسجّلها على أن يكتمها حتى يجلّيها لوقتها ، أو يجلّيها من بعده من الأعقاب

وعلى أي حال فإن إغفال هذه الأمور التي نحسبها في غالب الأحيان من التوافه ، كثيراً ما يخل بحق التاريخ ، ويُفضي إلى الجهل بالجمّ من حقائق الأشياء . ولست أجد في هذا الباب مثلاً أيسرَ ولا أدنى إلى الحسّ من أننا ، لولا مهبط البعثة العلمية التي صحبت الحملةَ الفرنسية في سنة ١٧٩٨ ، ما اهتدينا بسهولة أو ما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وتَمّتهم من قرن وثلث قرن من الزمان ، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد في مذهب التاريخ ؟

ولو قد عُني أهل كل عصر بأن يحفظوا لخلفهم نماذج من ثيابهم ، وآلاتهم في سائر حوائجهم ، وفعل هؤلاء مثل فعلهم لظلّت سلسلةُ الأزياء واضحةً على وجه الزمان

ولعل من الخير أن أنبّه في هذا المقام إلى أن محاولة كشف

الرجل من آثاره المحفوظة لا تجدى كثيراً فى الأبانة عن خلاله ومداخل عيشه ، حتى مظاهرها . بل إنها لكثيراً ما تكون من وسائل الضلّة فى إثبات التاريخ . ولست أسوق لهذا أكثر من مثلين اثنين : ذلك بأنك لو اتكأت فى طلب خلال الجاحظ على مجرّد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهد الناس فى المال ، وأنه لو سقط ليده لكان أجودَ به من الريح المرسلَة . فان أحداً لم ينع الشحّ ولم يذم الأشحّاء كما نعى الجاحظ وكما ذمّ : وإن أحداً لم يؤلف كتاباً فى (البخلاء) أبلغ فيهم ايجاعاً ، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعاً ، كما صنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسه من أشد المبخّلين الذين أوفوا على الغاية من الجشع ، والحمل على المروءة أحياناً فى طلب المال

وإنك لو التمست مثل هذا فى أبى الفرج لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سمتاً ، وأنظفهم بدناً وثوباً ، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك فى طعامه وشرابه ، وغير ذلك من أسبابه . ولكن الواقع أنه كان من أشد الناس شرهاً ، وأقبحهم مؤاكلة ، وأقذرهم خَلقاً وثوباً ، حتى ليصح فى بعض خَلّته قول الشاعر :

وسخ الثوب والعمامة والبِر ذَونِ والوجهِ والقفا والغلام !

ولو لا أن معاصرى هذا وهذا أثبتوا لكل منهما ما أثبتوا لزلّت فيهما الأقلام ، وضلّت الأوهام !

***

بعد هذا آخذ فى حديث أستاذى ورئيسى وصديقى العالم الفيلسوف ، الأديب ، الكاتب ، الناقد ، السيد محمد بك المويلحى رحمة الله عليه

من أكثر من ثلاثين سنة خلَت ، ولمّا أزَل بعدُ فى أيام الفتوّة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) فى أربع صفحات دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب الى الحُمرة . ويقوم بتحريرها ابراهيم بك المويلحى وابنه السيد محمد المويلحى . وكانت عامّةُ الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفسولة والأسفاف وتفاهة الموضوعات الى أبعد الحدود

مصباح الشرق

لقد كان هذا « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً ، لقد كان أبلغَ من طريف ، فانه لأعجوبة حقاً ، لقد كان هذا « مصباح الشرق » أبلغَ من أعجوبة ، إنه لشىء يكاد يتصل بحكم الخوارق فى تلك الأيام !

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخيرّ ، وديباجة مشرقة ، وصيغ مونقة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه السهلَ الممتنع

أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة فى سياسة الأمم وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكر المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف الألسنى فى عبارة عربية بليغة سلسلة ناصعة واضحة لا تستروح منها أى ريح للاستعجام . وهل رأيت قط ترجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف فى النقد ، نقد الأشخاص ، لا عهد للأدب العربى به من قديم الزمان ؛ بل لعله لا عهدَ له به من أول الزمان !

لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقةُ الجِرم مرتين أو ثلاثاً حتى أصبحت من بعض شُغل الخاصة فى هذه البلاد !

لا يدخل الأصيل فى يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرّشت جِباه ، وتقلّصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، ووجفت قلوب . هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ . كذلك كان يترقب الخاصةُ مشرِق « المصباح » وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان ما يشيع البصر كأنه فى مساحة النقد كلها ، لا يَستقرّ على موضوع خاصّ ، ولا يتحيزّ فى حديث معين . بل إنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل رد الطرف أثمّتْ المويلحى اسمَ صاحبه فيمن شكّ أم أرسلَه فى جملة الطُلَقاء ؟ ! حتى إذا اطمأن الرجلُ الى أنه قد كُتبت له السلامةُ بجمته ، ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نَفَسه ، ويبسُط من خَلقه ما تقبّض ، ويفرخ من روعه ما تحبّس

وإذا كان هذا شأن من لم تصب نهم أقلام المويلحيين ، فاحكم أنت ، عصمنا الله وإياك ، كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ؟

ن أنه مما ينبغي أن يُذكر هنا ، أن « المصباح » لم يكن يعرض قطُّ لأعراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتدسس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم ، بل لا يتناول من أمورهم إلا ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلّون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم ، فلقد كان « المصباح » أجل من ذلك موضعاً وآنفَ كرامة

وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهدَ لأدب مصر به ، بل لا عهدَ به للأمم العربية جمعاء . وهذا النوع من النقد يقوم ، في الجملة ، على التماس الجانب الضعيف في أثر الرجل ، فيعرضه بالقلم في صورة (كاريكاتورية) يزيد في تشويهها ما يتوافق لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يحضُره من فنون الاستشهاد والتمثيل ، ولا يبرح يمطّ الموضوع في هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة ، والملابسات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهي الى ما لا ينتهي اليه أحدٌ من الناقدين !

ولقد كان هذا من « مصباح الشرق » الأصلَ الثابتَ لهذا اللون من النقد ، أعني النقد (الكاريكاتوري) في مصر . كما كانت صحيفةُ الويلحيَّين (أبو زيد) أول ما عُرف ، فيما أعرف أنا ، من التصوير (الكاريكاتوري) في هذه البلاد . ولعلي ألمّ إلى هذه الصحيفة في بعض هذا الكلام

لم ينته خطب « مصباح الشرق » الى هذا الوضع فحسب ؛ بل لقد كان ، على أنه صحيفة لا تظهر في جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، يروى من جلائل الأخبار في الأسباب العامّة ما لا تبلغه الصحف اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذكاء عيونها الكثيرة في طلبه وتقصّيه ، فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج في كثير من الأحيان من نشر مهامّ الأخبار نقلاً عن « مصباح الشرق » الأسبوعية مضافة اليها معزوّة لها .

وفضل « المصباح » في هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل ابراهيم بك المويلحي عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار

ولا أحبّ أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « المصباح » أول من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقرية ابن الرومى بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان ، وأول من عالج النقد الأدبيّ لما تتفضح به قرائح الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى ، الذى جمع بين أساليب النقد في أزكى عصور العربية ، وبين طرائقه التي اختطّها نَقَدة الغربيين في هذا الزمان

وعلى الجملة ، فلقد فتح « المصباح » في الأدب العربي فتحاً جديداً ، وأمسى « مصباحاً » حقاً يهتدي المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام . وبهذا وهذا أصبح « مصباح الشرق » أخطر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف في هذه البلاد . ومما ينبغي أن يُذكر في هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاظمتهم سطوة « المصباح » في باب النقد فحسبوا له كل حساب ، ويا ويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والإحسان

وإني لأكتفي اليوم من حديث السيد محمد المويلحي بهذا القدر على نية العودة إليه في القريب إن شاء الله ؟

عبد العزيز البشري

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع الجزء الأول من كتاب :

الاسلام والحضارة العربية

للأستاذ محمد كرد علي

وزير معارف سوريا سابقاً

وهو يبحث في حضارة المسلمين قديماً وحديثاً وأثرهم في الحضارة العربية وتأثرهم بها . وقد طبع في مطبعة دار الكتب ويقع في نحو ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسى رقم ٩

ومن المكاتب الشهيرة